الفصل السادس
مسألة المعاناة

حينما نتمعن في تاريخ النشوء والارتقاء بحثا عن العوامل المسببة لظهور أعضاء الإحساس مع ارتقاء الحياة، نستطيع بكل اطمئنان أن نستنتج أنه منذ البدء كانت تلك الأعضاء سببا للشعور بالكسب والخسارة. وقد كانت رحلة الارتقاء عملية طويلة لاستيعاب غامض للكثير من المكاسب والخسائر، أدت بالتدريج إلى ارتقاء أعضاء الحواس لتسجيل وجود البهجة والألم، والراحة والمعاناة.

وإذا نظرنا إلى ما سبق من الأشكال الدنيا في الحياة، عند الدرجات الأولى من سلم الارتقاء، ثم أخذنا نقارنها بأشكال الحياة العليا قرب قمة السلم، فلا يكون من الصعب ملاحظة أن الارتقاء في حقيقة الأمر هو ارتقاء الإدراك. فالحياة تتحرك تصاعديا في حركة لولبية مستمرة.. من حالة دنيا للإدراك إلى حالة أعلى، مع الصقل المستمر لقدرات الوعي والإدراك.

إن الوعي بالمكسب والخسارة يكون خاملا وخفيا عند البداية، ولا نستطيع أن نحدد مركزا أو مكانا معينا لهذا الوعي والإدراك في تشريح الكائنات العضوية الأولية. ولكننا نعلم من ردود فعلها للعناصر والظروف المحيطة بها أن لها نوعا من الوعي الخفي. وهذا الوعي الخفي.. الذي لا يمكن شرحه.. هو الذي يستخدمه الخالق تعالى لإيجاد نوع من الإدراك في الحياة. وقد تطور هذا النوع من الإدراك، وصارت له مراكز خاصة في الكائنات الحية. وهذه المراكز هي التي ترسبت فيما نعلم عنه الآن أنه مراكز الحواس. وخَلْق المخ لم يكن واقعة منفصلة أو غير مرتبطة بهذا التطور. فلن يكون لتطوير أعضاء الإحساس معنى بغير تطوير مقابل لجهاز

عصبي مركزي، ونشوء المخ في نفس الوقت ليترجم الإشارات التي ترسلها الأعضاء الحسية. وعلى هذا، يكون من الواضح أن المخ قد تطور في تناظر هام لنظام الإحساس الأساسي. وكلما تطور الوجدان والشعور.. كلما زادت حدة الشعور بالمكسب والخسارة التي تشعر بها المراكز العصبية المعينة، فتترجم الإحساس بالخسارة إلى معاناة وألم، وتترجم الإحساس بالكسب إلى بهجة وسعادة، وتنتقل هذه المشاعر إلى العقل عن طريق المخ. وكلما قل الإدراك والشعور.. كلما قل أيضا الشعور بالمعاناة والألم. وينطبق نفس الأمر على الشعور بالسعادة. وعلى هذا فإن الأجهزة الحسية التي تزود الكائن بشعور البهجة والألم.. لا يمكن الاستغناء عنها. ومن الملاحظ أنه إذا قلت القدرة على الإحساس بالألم والمعاناة لدى أي كائن، تقل أيضا القدرة على الإحساس بالبهجة والسعادة بنفس القدر عند نفس الكائن. ويبدو أن القدرتين متساويتان تماما في دفع عجلة التطور؛ وكلاهما على نفس القدر من الأهمية، إذ لا يمكن إلغاء إحدى القدرتين دون الأخرى، الأمر الذي يخل تماما بفاعلية النظام الخلاق الذي يعمل على التطور والتقدم.

ونحن نفهم من القرآن الكريم أن الله تعالى لم يخلق المعاناة كشخصية مستقلة قائمة بذاتها، ولكن كمقابل لا يمكن الاستغناء عنه للراحة والبهجة. فغياب البهجة هو معاناة، وهي بمثابة الظل للبهجة، تماما كما أن الظلام هو الظل الذي يسببه غياب النور. إذا كانت هناك حياة.. فلا بد أن يكون هناك موت، يقف كل منهما على أقصى طرفي القطبين لمستوى واحد، وفيما بينهما ظلال ودرجات لا حصر لها. وكلما ابتعدنا عن طرف الموت.. فإننا نقترب بالتدريج من طرف الحياة، الذي يمثل الشعور بالسعادة؛ وكلما ابتعدنا عن طرف الحياة، فإننا نقترب نحو الموت بإحساس من الألم والمعاناة. إن هذا هو المفتاح اللازم لفهم الصراع من أجل البقاء، الذي يؤدي بدوره إلى التحسين المستمر في نوعية الحياة،

ويساعدها على تحقيق الهدف الأسمى للتطور.
إن مبدأ "البقاء للأصلح" يلعب دورا هاما متمما لنظام الحياة العظيم وارتقائها. وقد ذكر القرآن المجيد هذه الظاهرة في الآيات التالية من سورة الْمُلك:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (٦٧ الْمُلك:٢-٣)

إن إجابة السؤال: "لماذا توجد المعاناة؟" قد جاءت بوضوح في هذه الآية وفي أوسع تطبيقاتها.
والفلسفة العميقة للحياة والموت، ودرجات الظلال العديدة بينهما، والدور الذي تلعبه في صياغة شكل الحياة وتحسين نوعيتها، كل ذلك تشمله وتغطيه الآية المذكورة، فهي تحتوي على الغرض من الخلق والحياة والموت كما يُبينه الله تعالى. فنحن نعلم أن الحياة هي فقط قيمة إيجابية، وأن الموت ليس إلا غياب هذه الحياة، ولا يوجد بينهما حد معين يفصل أحدهما عن الآخر، وإنما هي عملية تدريجية.. تتدرج فيها الحياة في اتجاهها نحو الموت حتى تختفي. وفي الاتجاه الآخر أيضا حين لا يكون للحياة وجود، أي في حالة موت، ثم تتجه الحياة من حالة العدم إلى حالة الوجود، فتكتسب القوة والطاقة والإدراك.. وهي تسير في طريقها نحو الموت. هذا هو المقصد الأعظم في خطة الخلق. ولكن.. لماذا خلق الله هذا النظام للحياة؟

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾

هي الإجابة التي يُزودنا بها القرآن المجيد. فالصراع المستمر بين الموت والحياة، هو الذي يُخضع الأحياء إلى حالة مستمرة من المحن والابتلاءات، حتى إن كل من يسلك في الحياة مسلكا رشيدا، تكون له فرصة أكبر في

الحياة، وينتقل إلى درجة أعلى من الوجود. وهنا تكمن فلسفة وميكانيكية التطور كما هي مذكورة في الآية المشار إليها أعلاه. وهذا الصراع المستمر بين قُوى الحياة وقُوى الموت هو الذي يزود الأحياء بالقوة الدافعة التي تجعلهم يتحركون باستمرار بعيدا عن الموت أو في الاتجاه إليه. وقد تؤدي هذه الحركة المستمرة إلى التقدم أو إلى التدهور في نوعية الوجود، حسب النطاق الواسع لمتغيرات التطور. وهذا هو جوهر التطور وروحه.

إن المعاناة تكون محل اعتراض فقط لو كانت قد خُلقت كذات قائمة بنفسها، دون أن يكون لها دور معنوي تؤديه في تدبير الأمور الدنيوية. فبغير الإحساس بالمعاناة.. أو بغير الإدراك لما تعنيه، سوف يختفي أيضا الشعور بالراحة والفَرَح. وبدون مواجهة الألم وتجربة البؤس، لا بد أن يفقد الفرح والسعادة كل معنى. بل في الواقع.. إن الحياة نفسها سوف تفقد كل معنى.. ولا يكون لها هدف، وسوف تتوقف عجلة التطور.. وتجمد خامدة في مكانها. وعلى هذا.. خلال تطور حواسنا الخمسة، لعب الإحساس بالكسب والخسارة دوره الهام في الحياة.. تماما مثل عجلتي العربة التي تتحرك عليهما. انزعْ إحدى العجلتين وسوف تفقد الأخرى أيضا معناها، وبالتالي تتوقف العربة على الفور.

إن الصراع بين الحياة والموت الذي ينتج عنه الألم والمعاناة، يخلق أيضا البهجة والسعادة. وهو العامل الأول في قوة الدفع التي تزود عربة التطور بالطاقة اللازمة للتقدم إلى الأمام دائما.

وخلال التاريخ الطويل للتطور.. كانت الأمراض تتسبب دائما عن عوامل عديدة ترتبط بطريق مباشر أو غير مباشر بالتغيرات التطورية. فالتغييرات البيئية، والصراع من أجل البقاء، والطفرات، والحوادث، كلها مجتمعة.. أو كل منها على حدة، قد لعب دوره الخاص. فالأمراض والعيوب والقصور، كلها لها دور هام تلعبه لتحقيق الإصلاح والتقدم. وهكذا راحت أنواع الحياة المختلفة ترتقي وتتطور بغير وعي من جانبها كما

يبدو، ولكن بالتأكيد في اتجاه معين، يبدو أنه اتجاه في طريق مهّده الإدراك ليصل إلى إدراك أعظم.

ولنحاول الآن أن نتصور نظاما آخر تحتجب فيه عوامل المعاناة، حسب قاعدة افتراضية تقول: إن جميع أشكال الحياة يجب أن تتمتع بجزء متساوي من البهجة والسعادة، بغير أي شعور بالمعاناة على الإطلاق. فربما عندئذ يمكن إلغاء المعاناة تماما من الحياة. وسوف تكون هناك مساواة مطلقة، يتمتع بها كل فرد، ويقف على نفس المستوى. ولكن.. كيف وأين يمكن لنا تنفيذ هذا النظام الجديد؟ وا أسفاه! حيثما نحاول إدخال هذا النظام في أية حلقة من حلقات التطور الطويل، فإننا نواجه من المشاكل ما لا يمكن التغلب عليه. فإن هذه القاعدة الافتراضية لا بد أن تُطبق إما عند البدء في أول بداية الخلق، أو لا تُطبق على الإطلاق، لأن تطبيق التساوي المطلق في أية مرحلة تابعة بعد البداية، سوف يكون مستحيلا بدون خلق متناقضات لا يمكن حلها. ولذا فإننا سوف نضطر إلى العودة إلى نقطة البداية من حيث بدأت الحياة.

ولا بد لنا أن نعود القهقرى طوال تاريخ الحياة؛ نرتد على الطريق إلى نقطة البداية لنبني سلما جديدا للتطور، درجة بعد درجة. ولكن فلنحاول ما استطعنا.. وسوف نجد أننا توقفنا عند أول درجة.. التي هي نقطة بداية الحياة نفسها. ولن نستطيع أن نتقدم بعدها خطوة واحدة إلى الأمام، لأن التوزيع المتساوي تماما للسعادة، والغياب الكامل للمعاناة، سوف يزيل تماما أية قوة دافعة للارتقاء. فلن يكون هناك صراع للبقاء، ولن يكون هناك اختيار طبيعي للأنواع، ولا بقاء للأصلح. ولن تتمكن الأشكال الأولية للكائنات الحية أن تأخذ أية خطوة للتطور إلى الأمام.

ولنتصور المرحلة الأولى للحياة التي كانت تمثلها ثلاثة أشكال من وحدات الحياة المعروفة لدى الإنسان، أي البكتريا ذات الأنوية، والبكتريا بدون أنوية، والبكتريا النارية (التي تتوالد من الطاقة النارية). وفي هذا النظام

الذي افترضناه.. لن يكون هناك تنافس من أجل الغذاء، ولا صراع من أجل البقاء، لأن الجميع يحصلون على نصيب متساوي من حاجياتهم، ولن يكون هناك أية معاناة أيضا. ويترتب على هذا النظام الافتراضي الذي أعدنا تصميمه للخلق، أن تستمر الحياة على ما كانت عليه، وتظل بكل تأكيد ساكنة وخامدة إلى الأبد، ثابتة على أولى درجاتها غير المتطورة. الأمر الذي يجعل خَلق الإنسان أمرا بعيد المنال عند بداية الخلق. وعلى هذا يكون السؤال الحقيقي هو ما إذا كان من الأفضل اختيار نظام تكون المعاناة فيه جزءا لا يتجزأ منه، ويستمر فيه الارتقاء يتحرك إلى أعلى بحركة لولبية لتحقيق المصلحة العليا للحياة، أو التخلي كلية عن خطة الحياة خوفا من عدم القدرة على تجنب المعاناة. وفي هذه الحالة من التحليل النهائي يكون السؤال المتبقي وعلينا إجابته هو: "أن نكون أو أن لا نكون"؟.

فالأشكال الأولية للحياة، لو كان لها مخ تفكر به، فلعلها كانت تختار "أن لا نكون" عن "أن نكون" في وجودٍ فيه كدح وعناء لا معنى له.

كذلك فإن المعاناة ترتبط أيضا بفكرة الجزاء والعقاب. ومن الممكن مشاهدة ومضات من الجزاء والعقاب في المملكة الحيوانية، ولكن في نطاق ضيق وتطبيق محدود. ويمكن ملاحظة ذلك في سلوك الكثير من الحيوانات في البر والبحر وفي طيور السماء. فالأفيال والثيران معروفة بنَزعتها الشديدة إلى الانتقام. هذه الخاصية التي تكونت تدريجيا لا بد أنها ترتبط بحلقة أعلى في التكوين التدريجي للاختيار. فإن اختيار أن تفعل شيئا أو لا تفعل شيئا، يمكن أن يكون إما فطريا غريزيا، أو بقرار محسوب للعقل. ونحن لسنا على يقين بعد بمدى الدور الذي يلعبه عنصر الاختيار في السلوك الحيواني، ولكننا نعلم أن عنصر الاختيار يلعب دورا حيويا في عملية اتخاذ القرار لدى الإنسان. وما إذا كان الإنسان يتحرك نحو النور أو الظلام، نحو الموت أو الحياة، هو في أغلب الأحيان قرار يقوم على العقل من جانب الإنسان.

وعلى هذا.. إذا ترتب على الاختيار الإرادي للإنسان، وكناتج طبيعي لهذا الاختيار الإرادي، أن أصاب الإنسان كسبا أو ألمت به عقوبة، فلن يقع اللوم على أحد سوى الإنسان نفسه.

وفي بعض الأحيان يتعرض الناس للمعاناة بغير أن يُدركوا أنهم هم أنفسهم محط اللوم – فهناك مبدأ عام للمجازاة يعمل في الطبيعة، ويُعرف باسم الانتقام الإلهي. ومن الجائز أن يكون المرء، بقصد أو بغير قصد، قد استحق بعمله أن ينال نوعا من المعاناة، بغير معرفة وبدون تحديد السبب. وذلك لأن ليس كل خطأ يؤدي إلى نتائج عقابية فورية. ولكن كثيرا ما يحدث أن تنفذ الطبيعة عدالتها ضد المذنب بغير أن يدرك هو ذلك. غير أن هذه ليست المشكلة كلها، فهي أكثر تعقيدا وأوسع تشابكا، وتحتاج إلى المزيد من الشرح والتوضيح بمساعدة بعض الأمثلة العلمية المعينة، سواء كانت حقيقية أو افتراضية.

وهناك بعض الحالات شديدة الصعوبة ويتعذر شرحها، مثل أولئك الأطفال الذين يولدون بتشوهات خلقية. لماذا كُتبت عليهم المعاناة؟ إذ لا يمكن أن يُقال إنه بسبب خطأ من جانبهم. وإذا كان هناك أي خطأ فلا بد أن يكون من جانب والديهم، رغم أن هذا الخطأ قد يكون وقع بغير قصد منهما. وفي هذا السياق فإن لفظ "الخطأ" يجب أن يُفهم حسب أوسع معانيه، ليشمل حتى الوقوع العارض لأمراض الولادة. فإن مثل هذه الأخطاء أبعد من أن تكون جرائم مقصودة. ومهما كانت طبيعة أي من الأسباب المؤدية لهذه التشوهات، فهناك أمر واحد مؤكد.. هو أن الطفل البريء المسكين الذي وُلد بأية إعاقة، ليس مسؤولا بحال من الأحوال عن هذه المعاناة.

إن مفتاح فهم هذه المشكلة يكمن في إدراك أنه ليست كل أشكال المعاناة يمكن أن تُصنف على أنها عقاب، كما أن كل أشكال الفرح ليست مكافأة وجزاء. فهناك دائما نسبة صغيرة من الأفراد الذين يبدو أنهم

يعانون.. كما لو كان ذلك بغير مبرر. ومع ذلك.. فعند التحقيق المتفحص والحريص لمثل هذه الحالات، سوف يتكشف أنه ليس هناك مجال لظلم متعمد. إنها مجرد نتاج ثانوي لخطة أوسع للخلق، ولكنها أيضا تلعب دورا مفيدا في التقدم العام للمجتمع الإنساني.

ويجب ألا ننسى أن "العلل والمعلولات" شيء، وأن "الجريمة والعقاب" شيء آخر، مهما بدا أنهما يتماثلان. فمن الصحيح أن يُقال إن الجريمة يمكن أن تعمل كما تعمل العلل، وكل عقوبة تنتج عن الجريمة هي من المعلولات، ولكن ليس من الصحيح أن يُقال إن كل معاناة هي عقوبة على جريمة ارتُكبت من قبل. وليس من الصحيح أيضا أن يُقال إن جميع الأطفال الذين وُلدوا بصحة جيدة، قد وُلدوا هكذا مكافأة لوالديهم على أعمالهم الطيبة. ولا أن يقال كذلك إن الأطفال الذين وُلدوا بأي نوع من التشوهات أو الإعاقة، قد وُلدوا هكذا عقابا على جرائم آبائهم أو أجدادهم. فالصحة والمرض، المهارة والإعاقة، السعادة والتعاسة، المزايا والأضرار التي ينالها المرء عند ولادته، كلها أمور لا غنى عنها في النظام العام للخليقة، حيث إنها جميعها تلعب أدوارها كعلل، وهي منفصلة انفصالا تاما عن ظاهرة الجريمة والعقاب، أو الخير والجزاء. وكما سبق أن ذكرنا فيما مضى.. إن المعاناة مثلها مثل البهجة.. كلاهما ضرورة جوهرية لتطور الحياة، وخلال تطورها لا ترتبط هذه الضرورات بتاتا بظاهرة الجريمة والعقاب.

إن المعاناة في دورها كعلة من العلل.. تنتج كمًّا واسعا من المعلولات التي لا غنى عنها وعن فوائدها، الأمر الذي يقتضي ضرورة وجودها.

لقد ظلت المعاناة معلما عظيما، تصقل وتهذب سلوكنا، تُطور وتنقح المشاعر، تُعلم التواضع والوداعة، وبأكثر من وسيلة.. تُعد البشر للالتجاء إلى الله تعالى. إنها توقظ الحاجة إلى البحث والاكتشاف، وتخلق الحاجة التي هي أم الاختراع.

أزِل المعاناة كعلة مُسببة لتفجير القوى الكامنة في نفس الإنسان.. وإذا بعجلة التقدم تدور إلى الوراء مائة ألف مرة.

قد يحاول الإنسان ما شاء له جهده أن يُغير من نظام الكون، ولكنه لن يجني سوى الخيبة والفشل. وعلى ذلك.. يكون موضوع إلقاء اللوم على الخالق عز وجل بسبب المعاناة لا أساس له على الإطلاق، لأن المعاناة، بدورها الخلاق المتواري الذي تلعبه، إنما هي في الحقيقة نعمة مخفية.

إن سر جميع البحوث والاكتشافات العلمية تعود إلى البحث الدائب عن وسائل لتخفيف الآلام، وتوفير أسباب الراحة. فمن النادر أن تقوم الدوافع وراء البحوث والاكتشافات العلمية على رغبة في الرفاهية، بينما تقوم معظمها على الحاجة إلى تجنب الألم. وعلى أية حال، فإن الرفاهية نفسها ليست سوى امتداد لنفس الرغبة، وإلى الميل للابتعاد عن حالة من التعب والضيق إلى حالة أخرى، تُعتبر بالمقارنة راحة وسلوى.

ولنبحث مرة أخرى موضوع "الأبرياء" الذين يُعانون دون ذنب أو جريرة.. الأطفال الذين يولدون بتشوه أو بإعاقة، أو أولئك الذين يقعون فريسة للأمراض فيما بعد، مثل التيفود وغيره من الأمراض التي تسبب الإعاقة، فلا تتركهم إلا عميا أو صما أو بكما، وربما تسبب لهم شللا جزئيا أو كليا يعانون منه طوال حياتهم. والأسوأ من ذلك.. هي حالة أولئك الأطفال الذين تتعرض أجهزتهم العصبية للتلف، نتيجة لوقوع حادث أو مصيبة أثناء الولادة، مما ينتج عنه إعاقة ذهنية وتخلف عقلي. فهل يكون من الصواب أن نسأل: لماذا يُصاب بالذات هذا الطفل "أ" أو ذاك الطفل "ب"؟ ولماذا لا يصاب طفل آخر وليكن "ج" مثلا أو "د"؟ ألا يتكرر السؤال مرة بعد مرة؟ لماذا "ج" أو "د" وليس "هـ" أو "و"، وهكذا؟

إن السؤال الوحيد الذي قد يبدو معقولا هو: لماذا يُصاب أي واحد من الأطفال على الإطلاق؟ وعلى هذا يكون الخيار الوحيد أمام الخالق هو أن

يخلق جميع الأطفال سالمين بصحة جيدة حتى يكونوا في ذلك سواء، أو يخلقهم جميعا مرضى فيكونوا أيضا سواء. وهذا يقودنا إلى إدراك أن صحة الطفل في حد ذاتها ليست سوى مجرد أمر نسبي. ولعله من الصعوبة بمكان العثور على طفلين اثنين متشابهين تمام المشابهة في كل شيء، حتى في التمتع بصحة العقل والقلب وجميع الأعضاء الجسدية.

ولعل البعض يرى أنه لا بد أن يكون هناك سؤال آخر ضد الخالق: فإن كان أحد الأطفال يولد بعينين ضيقتين، وأنف أفطس كريه المنظر، وأعضاء أخرى غير متناسقة الشكل، ألن يقاسي هو ويعاني طوال حياته حين مقارنة سوء منظره بغيره من المحظوظين من أقرانه؟

إن عدم المساواة في الصحة أو في الشكل تسبب الضيق والمعاناة المستمرة لدى معظم الأفراد، والبعض يُقاسي الأمَرّين عندما يجدون أنفسهم أقل حظا من غيرهم. ألا يستدعي هذا، باسم العدالة المطلقة، أن يخلق الله تعالى كل فرد من البشر ليكون متماثلا تمام التماثل في الصحة وفي الشكل مع باقي الأفراد؟

وحين توسيع مجال المقارنة بإدخال المواهب العقلية والقلبية والجسدية، والتناقضات بين المتميزين والمحرومين، يصير التشابه الكامل بين جميع الأفراد ضرورة أكثر أهمية وأشد تأكيدا. حتى وإن أمكن التخلص من الفروق الكبيرة الواسعة بين الأفراد، فسوف تظل الفروق القليلة البسيطة بينهم تبدو مزعجة، ومعارضة لمبدأ العدالة.

إن التنوع، والتغاير، والتعدد، لا بد أن يبدأ في مكان ما لكسر حدة التماثل الممل، ولكن حيثما وُجد التنوع والتغاير.. فلا بد من تَوَلد نوع من المعاناة أو الـــبهجة. وهكذا يتبين لنا أن الاعتراض على نظام الدنيا باسم الشفقة على الأطفال المعاقين شيء.. واستبدال هذا النظام بآخر أكثر شفقة ونافعا بـــلا عيوب.. شيء آخر تماما. وليحاول المرء أن يغير هذا النظام، ولكنه حتى ولو حاول لدهور طويلة، فلن يستطيع أن يستبدل النظام الذي وضعه

الله تعالى للخلق بنظام آخر أفضل منه. وهذا يأخذنا مرة أخرى إلى السؤال الـــذي أجبـــنا عليه في هذا السياق وهو: لماذا لا يمكن التخلص كليا عن المعاناة بجميع أشكالها، ولماذا هي أمر محتم؟

ولنبحث السؤال نفسه من زاوية أخرى.. من وجهة نظر الملحد، ومن وجهة نظر المؤمن أيضا.

أما إذا أخذنا وجهة نظر الملحد.. فمن الناحية المنطقية البحتة.. لا توجد هنا مشكلة تبتغي الحل، ولا سؤال يبحث عن جواب. فالملحد لا يؤمن بأن وجوده يعود إلى أي خالق، وبالتالي.. فليس هناك من خالق يكون مسؤولا لديه إذا وجد أي انحراف أو اعوجاج في الخلق.. الذي حدث عشوائيا، وبدون أي تخطيط. فكل معاناة، وكل شقاء، وكل توزيع غير متساوي للبهجة والسعادة، ليس من أحد يتحمل اللوم عليه.. سوى الصدفة وحدها، وبذلك ينتهي هنا بحث الموضوع. فالصدفة وحدها هي الخالق، أو الطبيعة، مهما كان المسمى، فهو شيء غير عاقل، أخرس وأصم، أعمى ومشوّش، لا يمكن أن يُلام على أي قصور في وجودٍ نشأ من الفوضى. إن ناتج الصدفة، بغير الخالق، لا بد أن يكون أعمى ومختلا ومشوّشا، بغير عقل، وبلا نظام، وبدون اتجاه.

أما بالنسبة لأولئك الذين يؤمنون بالله الخالق ﷻ، فلا توجد بالنسبة لهم أية مشكلة كذلك. لأنهم يرون في الخلق نظاما وتوازنا واتجاها، وهم يقبلون حكمة الصانع في جميع ما صنع. ولا يرون في الشوكة الناتئة من هنا وهناك في باقة من الزهور.. زاهية الألوان.. رائعة الجمال.. بديعة التنسيق.. عطرة الرائحة.. جميلة التكوين.. سببا كافيا يجعلهم يحجمون عن قبول الباقة، أم أن عليهم يا تُرى أن يرفضوها؟

إذا كان ظن الملحد وارتيابه في محله، يكون الموت هو المخرج الوحيد من بؤس وشقاء الأبرياء الذين يقاسون مرارة المعاناة دون ذنب أو جريرة. وإذا صح اعتقاد المؤمن في سلامة تصوره لنظام الخلق وغايته، فإن الموت

أيضا هو المخرج، ولكن لغاية تختلف تماما عن غاية الملحد. فبالنسبة لهم.. ليس الموت إلا منفذا إلى الحياة الأخرى، التي تقود الأبرياء الذين يعانون العذاب في الدنيا إلى عهد لا نهاية فيه للأجر والثواب والمكافأة والتعويضات. إذ لو أنهم استطاعوا أن يتصوروا ما أخفي لهم من قرة أعين في الحياة الأخرى من تعويض على البؤس العابر والمؤقت على الأرض، لاندفعوا جريا على الطريق.. تغمرهم الفرحة، رغم الآلام والمعاناة، كما لو أنها كانت كلها مجرد شكة إبرة، أو مجرد شوكة على طريق حياة أبدية من الراحة والبهجة والسعادة.

وقد لا يقبل البعض هذا، ويظل مُصرا على أنه لا يوجد خالق ولا توجد حياة أخرى للثواب والعقاب بعد الموت. والجواب السابق لمثل هؤلاء لا قيمة له. وإذا كان الأمر كذلك، فلا داعي لمناقشة السؤال أصلا. فعليهم أن يتذكروا أن السؤال يمكن أن يُناقش فقط من زاوية علاقة الله تعالى بالخلق ودوره سبحانه كخالق. فإن موضوع الأخلاقيات، وصحة أو خطأ شيء ما، تنشأ فقط من الإيمان بوجود الله. فإذا كان الله موجودا بالفعل، فلا يكون من المستبعد حينئذ أن يحدث ما ذكرناه من تعويض عن المعاناة في الدنيا. وإن لم يكن هناك إله فلا يمكن أن نلومه، هو أو غيره، على أية معاناة وقعت بمجرد الصدفة. إذ أننا يجب أن نأخذ الحياة الدنيا وكل ما يتعلق بها باعتبارها مجرد حادثة وقعت مصادفة بدون أي معنى، وبلا أي اتجاه، وبغير أي هدف. وعلى هذا.. يكون من الواجب قبول المعاناة على أنها جزء من طبيعة الأشياء، وكما لو كانت شيئا لا يمكن التخلص منه ولا الهروب منه. وفي أي الأحوال على الإنسان أن يتعلم كيف يعيش مع المعاناة. إن المعاناة بالطبع هي مُكَوّن جوهري لقُوَى الدفع اللازمة للتطور. غير أن موضوع التوازن بين المعاناة والسعادة المستقاة من الشعور بالوجود..لا يزال أمرا ينتظر أن يتقرر ويُبَت فيه. ففي هذه المعادلة البسيطة.. نجد أنه إذا كان الإحساس بالمعاناة يفوق الشعور المتأصل في

النفس بالرضى الناتج عن الإحساس الذاتي بالوجود، فحينئذ سوف تُفضل الغالبية العظمى من الناس الموت على الاستمرار في الحياة مع المعاناة. أي إذا كان معظم أولئك الذين يُقاسون من الألم والمعاناة.. يفضلون أن يفقدوا الإحساس بالوجود على التعايش مع الشقاء، فحينذاك تكون الحكمة وراء منهج الحياة بمعاناتها هي محل اعتراض. ولكن الواقع الفعلي الذي نراه هو عكس هذا الافتراض المذكور.

إن الحياة غالية ولا يُفرط فيها، وأحيانا يكون هذا برغم معاناة الكثير من البؤس والمزيد من الشقاء. والْمُشاهَد في الحياة أن هذه هي القاعدة العامة الحاكمة، مع الاستثناءات النادرة التي هي أقل من أن تُذكر لدى المقارنة.

كذلك يجب أن نتذكر أن منظور المعاناة منظور متغير، وهو دائب التغير كلما تغيرت زاويا النظر إلى المعاناة. فإن أولئك الذين يتمتعون بصحة جيدة.. يعتبرون أن الأطفال الذين هم في المستوى دون العادي.. يقاسون الكثير من المعاناة، بينما هؤلاء الذين هم في حالة شديدة من الحرمان والعوز.. سوف ينظرون إلى الأطفال فوقهم - رغم كونهم في المستوى غير العادي - نظرة غبطة وحسد.

وعلى مجال أوسع رحابة.. نلاحظ أن كل شكل من أشكال الحياة إما أن يكـــون أسمَى أو أدنى من أشكال الحياة الأخرى.. الأعلى أو الأدنى منها. وخـــلال مرحلة التطور.. كان إدراكنا بقيمة الأشياء يتغير ويتطور.. من الطبقة الأدنى إلى الأعلى. وخلال مراحل الارتقاء التي تتحرك بحركة لولبية في الاتجـــاه الأعلى، حين يُنظر إلى أسفل من مستوى عال، فإن الأسفل يظهـــر في موقـــف متخلف. وتتمسك أشكال الحياة العليا بهذا الإدراك الأعـــلى بقيمة الأشياء، الذي اكتسبته خلال ملايين السنين من التطور. وأي انـــتكاس أو فقدان لهذه القيم أو القدرات، سوف يتسبب حتما في الإحســـاس بالمعانـــاة، التي كانت هي نفسها ضرورية للوصول إلى القيم العلـــيا. ولنتصـــور مثلا حالة الديدان.. بالمقارنة مع بعض أشكال الحياة

الأعـــلى منها، ونقارنْ مرة أخرى حالة هذه الأشكال العليا مع الأنواع الحيوانية الأكثر تقدما في الدرجات الأعلى من سلم التطور. إنها جميعا بلا شك غير متساوية في المواهب والقدرات. فالديدان التي تنمو وتتكاثر على المخلفـــات العضوية والقاذورات، لا يمكن بحال من الأحوال أن تتصور نفســـها على قدم المساواة مع الأفراس البرية، التي تجول حرة في البراري وتـــتغذى عـــلى الحشائش الخضراء. ومع ذلك فهي لا تستطيع أيضا أن تتصـــور نفسها في منْزلة أقل من تلك الأفراس. إن لكل من النوعين عالمه الخـــاص بـــه الذي يختلف عن الآخر، ولكل قدراته المختلفة، ومتطلباته المخـــتلفة، وتطلعاتـــه المختلفة.. إذا كان من الممكن أن يكون للديدان تطلعات أصلا.

وعلى ذلك.. إن عدم التكافؤ هذا لا يعني أنهما كانا هدفا لأي ظلم وقع علـــيهما. ولنتصـــور مثلا حالة بعض الديدان السعيدة التي تتمتع بصحة جـــيدة، فمن الواضح أنها جميعها قد تأقلمت مع محيطها الذي تعيش فيه، وهي راضية تماما بكل القدْرات التي زودها بها يد الخالق، ولا تستطيع أن تـــتطلع إلى أي شيء فيما وراء المجال الذي تعمل فيه حواسها. ومع ذلك إذا عُرِض على أي طفل بشري أن يستبدل حالة المعاناة التي يُقاسي منها بأن ينقلب إلى دودة سعيدة راضية، فإنه يُفضل الموت عن خيار الحياة في المستوى المتدني لوجود الديدان.

إن الإدراك نفسه لنوعية الحياة التي يحياها الإنسان في مستوى أعلى من مستويات الحياة، إنما يكفي في معظم الأحوال لتعويض أي ضرر يعاني منه الإنسان.

ومن هذا يتضح أن المعاناة حالة نسبية.

ويكمن مصدر المعاناة في الإحساس بالحرمان. فالإدراك بنقص أشياء معينة، أو فقدان أمور عزيزة على الإنسان، تَعَوَّد الإنسان على حوزها أو امتلاكها.. هو الذي يثير الإحساس بالألم. ولا يحدث هذا إلا إذا كان

الإنسان قد ذاق الإحساس بالسعادة من قبل عندما كان يتمتع بتلك الأمور والقيم، أو إذا رأى الآخرين يتمتعون بها.

إن فقدان الإنسان تلك القيم بعد التمتع بها، أو رؤية الآخرين يتمتعون بها بينما لا يستطيع هو تحقيق هذه المتعة، هما العاملان القويان اللذان يسببان الألم. ولكن نقص الأمور التي لا يستطيع الإنسان أن يُدرك قيمتها أو كنهها، لا يسبب لديه أية معاناة على الإطلاق. وما هو الألم على أية حال إن لم يكن مجموعة من الأحاسيس بفقد أمور متنوعة؟

ورغم أننا لا نستطيع دائما أن نُرجع كل أحاسيسنا بالألم إلى مسببات معينة، فإن الدراسة العميقة سوف تكشف لنا دائما أن كل إحساس بألم..يتعلق ويرتبط ارتباطا متلازما مع الإحساس في المقابل بفقدان شيء ما.

إن خلق الأجهزة الحسية وتطورها، يرجع إلى مواجهات طويلة لا حصر لها مع الإحساس بالكسب والخسارة، فهذان العاملان لهما قدرة فائقة خلاقة خلقها الله تعالى. وجميع الحواس الخمس التي نتمتع بها إنما هي كنتاج لإدراكنا بها كما ذكرنا من قبل، قد ارتقت عبر ملايين السنين من التطور، حتى صارت نظاما آليا للإحساس. فالألم والبهجة لا يستطيعان بذاتهما أن يخلقا نظاما آليا من الإدراك. وسوف ينعدم الألم وتموت البهجة إذا انعدم الإدراك بهما، فكيف يمكن للعدم أن يخلق شيئا؟

إن عدم الإدراك لا يمكن أن يُصمم ويخلق إدراكا، حتى ولا في خلال تريليون من السنين. فلا بد أن يكون الخالق خالقا مُدركا، ذلك الذي يهب الموت إدراكا ويخلق منه الحياة. ويبدو أن الخلاق بديع الصنع والقدير قد استعمل الألم والبهجة في نسق لا يزال غير معروف، وبأسلوب لا يزال خفيا، ليخلق نفس الأعضاء التي تشعر وتحس بهما. وإذا أزلنا الألم كوسيلة في خلق هذه التحفة من الإعجاز الخلاق.. فسوف تتحول الحياة إلى رُكام من حياة خاملة لا حس فيها، ولا تدرك حتى

وجودها. فهل بعض الحالات الشاذة من البؤس والحرمان، تُعتبر ثمنا كبيرا فادحا لوجود هذا الإدراك الرائع العظيم؟

ودعونا نُذَكر القارئ بأن الإسلام يعتبر أن الشر هو مجرد ظل يحدث بسبب غياب النور. فالشر ليس له وجود إيجابي بذاته.

إننا نستطيع أن نتصور أي مصدر من مصادر النور، مثل الشمس أو المصباح وغيرهما، ولكننا لا نعرف ولا نستطيع أن نتصور أي مصدر للظلام. فالطريقة الوحيدة التي يمكن بها لشيء ما أن يكون سببا للظلام هو قدرته على حجز النور ومنعه من النفاذ. وبالمثل، فإن غياب الخير فقط هو الذي يسبب الشر. ودرجات الشر إنما تتقرر بدرجة التعتيم التي يسببها عامل يعترض الخير.

كذلك فإن الإدراك بتملُّك شيء ما، هو الذي يثير البهجة في النفس. وأي نقص، أو تهديد بنقص، أو فقدان شيء مما يملكه الإنسان، هو الذي يسبب له الألم والمعاناة. ولكن كلا من البهجة والمعاناة يجب أن يتواجدا في معادلة لقطبين أحدهما سالب والآخر موجب، إذا أزلنا أحدهما.. اختفى الآخر. ولذلك لا يستطيع أحد أن يتدخل في التصميم الخلاق للألم، أو البهجة، أو الشر، أو الخير، وينجح في تغيير هذا النظام.

فليس في قدرة شفقة الإنسان أن تمحو المعاناة.. بغير أن تمحو الحياة نفسها.